معلم وطالب في عالم المتناقضات لنترك العقاب ونقرأ القصص

محمد جبران

كنت طالباً قبل أن أكون معلماً طموحاً غير مقيد، منظم، متشائل على الدوام. عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أشاهد نفسي عندما كنت طالباً مجتهداً.

كانت دراستي في بدايتها في مدرسة أهلية امتزجت فيها المعاناة إلى جانب السعادة، فالاهتمام لا يكون إلا بعدد ضئيل من الطلبة، ولا مراعاة للفروق الفردية، فقط العلامة هي التي تقيم الطالب.

أذكر نفسي كم كنت أحفظ دون فهم، أدرس من أجل الحصول على العلامة فقط؛ فإن لم تحصل على علامة جيدة تعاقب عقاباً شديداً وهو الضرب بمسطرة حديدية على يديك. أذكر ذلك جيداً لأن أخي التوأم كره الدراسة من معاناته فيها، ولم أستطع أن أساعده.

أحياناً كنت أحاول مساعدته فهو يطلب مني راجياً، كنت أحياناً استبدل ورقته بورقتي كي أكتب له بعض الكلمات، فعلاوة على أنه أخي هو زميلي وصديقي.

إن تشاجرت مع أحد ولم تكن مذنباً كلاكما تعاقبان بالضرب. اذكر تلك الكلمات «عصاة من تحت الدست الأحمر» كان يقولها معلم الرياضة الذي كان أيضاً مسؤول النظام في المدرسة.

انتقلت إلى مدرسة حكومية ليست ببعيدة عن مكان سكناي، كنت أحب تلك المدرسة كثيراً، أحب أن أزورها، فأنا كل شهر أزورها وأحضر بعض حصص معلميها، أريد أن أعيد الذكريات بالإضافة إلى تبادل الخبرات مع معلميها، وجدت فيها من أعرفه وهو آذن المدرسة الذي تذكرني قال لي: «كنت طالب . . ما تخلي طلابك اعانوا مثلك».

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أرى معلم اللغة العربية الذي لم تفارقه العصا الخشبية، أذكر صوتها، لم أضرب بها، لكن تأثيرها ما زال في نفسي. في هذه الأيام أصبح مشرفاً على المرحلة الأساسية عندما أصبحت معلماً، لم أصدق ما رأيت! ماذا سيعلم المعلمين؟ هل سيكون العنف تجاه الطلبة وسيلة تعليمية؟ ماذا سأفعل لو زارني في أحد الأيام؟ هل سأضطر إلى حمل العصا أمامه؟

أذكر معلم الرياضيات وضحكته التي لا تفارق وجهه. كان يعززني دائماً ويمدحني كثيراً، كنت اجتهد أكثر فأكثر علّي أكون عند حسن ظنه.

أكثر اللحظات تأثيراً هي مرحلة الثانوية العامة، كنت الأعلى مرتبة على زملائي الطلاب. بدأت دراستي الجامعية في جامعة بيت لحم، تنوعت في التخصصات، ولكن التخصص الذي أحببته هو اللغة العربية وآدابها؛ وذلك لأنني أحب مهنة التعليم، فهي هوايتي.

وفي كل فصل من فصول الجامعة كنت أحصل على مرتبة الشرف. دوماً أعمل أقصى ما عندي لأحصل على الأفضل.

أنا باحث، بالإضافة إلى كوني معلماً، لم أقف عند حد اكتساب

المعرفة، بل قمت بالاستكشاف فيها، قمت بعمل مجموعة من الأبحاث، التي نشر بعضها. وكان أهم هذه الأبحاث هي المقارنة ما بين اللغات العربية والعبرية والسريانية.

تم تعييني مدرساً في مدرسة أهلية تابعة لجامعة بيت لحم، هي مدرسة الفرير الثانوية، وذلك العام 2010، وفي الوقت نفسه تم تعييني مدرساً للمرحلة الثانوية في مدرسة الخلفاء الراشدين، لكنني رفضت الذهاب كوني ملتزماً تجاه المدرسة التي أعمل بها.

في أول يوم كنت أتساءل: «هل سأنجح؟ هل أنا قادر على تحمل هذه الأمانة؟ من أين سأبدأ؟ كيف سأعامل الطلبة؟ كيف ستكون علاقتي مع زملائي؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟ كيف أحضر؟ كيف أضبط الصف؟» وبعد أن كسرت أول حاجز بيني وبين هذه المهنة، اكتشفت أن البداية فقط هي الصعبة، وتحتاج إلى إعداد واستعداد كبيرين.

ولم تمض سوى أيام حتى اتصلت مديرية التربية والتعليم بالمدرسة، التي أعمَل بها ليخبروني أنني عينت مدرسا للمرحلة الأساسية مع الاستحقاق الكامل بالوظيفة في مدرسة ذكور الخضر الأساسية في بلدة الخضر.

عندما دخلت الصف أول مرة شاركت طلابي بوضع القوانين التي تحكمنا وتنسجم معنا. فلا للعنف اللفظي والجسدي. نحب الالتزام والنظام، ولا بأس من إدخال النكات أو القصص أثناء الشرح، ولا بأس من التعليق على كلمة قالها طالب أو تصرف تصرفه طالب آخر، ولا بأس من الاحتفال بمناسبة حلت.

من فعاليات مشروع توظيف الرسوم المتحركة في التعليم في مدرسة إناث قلنديا.

إن لذلك أثراً كبيراً على نفس الطالب، إذ تزيده حباً لنفسه وللمعلم وللموضوع. أذكر أن طالباً لم يكن يحب حصة اللغة العربية ويكره قواعدها، لكن نظرته تغيرت بجملة واحدة قلتها ذات يوم له: «كلامك جيد يا أيمن لكن دعنا نستمع لإجابات أخرى علها تكون أفضل»، هكذا بدأ هذا الطالب يفكر ليجيب إجابة أفضل من التي أجابها ويتنافس مع أقرانه.

في السنة الأولى كنت مسؤولاً عن لجنة مبحث اللغة العربية في المدرسة، أتابع مع زملائي مدرسي اللغة العربية جميع المسائل المتعلقة بهذا المبحث من ضعف في تحصيل الطلبة، وسبل رفع تحصيلهم، وإعداد الخطط العلاجية المكثفة لرفع مستوى تحصيلهم في مبحث اللغة العربية.

وفي السنة الثانية أصبحت مسؤولاً عن لجنة التعليم الجامع المسؤولة عن دمج الطلبة في المدرسة، وعن متابعة الطلبة صحياً وأكاديمياً عبر الاجتماع مع الهيئة التدريسية والأهالي ومؤسسات المجتمع المحلي والمؤسسات المختلفة.

عمدت إلى زيارة المعلمين في مدرستي وفي المدارس الأخرى حتى أتعلم من كل منهم أفضل الوسائل في التعليم. في بداية الأمر كنت مقلداً لبعض أساليبهم، ولكنني بعد ذلك طورت وابتكرت طرقاً وأساليب جديدة.

ولم تمض السنة الأولى حتى تم ترشيحي وثلاثة من زملائي في مديرية التعليم في بيت لحم للمشاركة في لقاء لإعداد معلمين متخصصين في علاج الضعف الأكاديمي عند الطلبة من خلال الدراسة والتطبيق لعامين في برنامج ممول من صندوق البنك الدولي في إحدى الجامعات الفلسطينية.

دائما أبحث عن أساليب وطرق جديدة تدفع الطالب إلى البحث والاستكشاف والعمل بجد للحصول على المعرفة ثم العلامة.

كما أوزع القصص القصيرة لطلاب على مدار السنة الدراسية ليقرأ كل طالب منهم ما يزيد على 15 قصة، باعثاً فيهم أمل القدرة والإبداع على كتابة القصص القصيرة، حيث يقوم الطالب برسم رسومات حول فكرة ما، ثم يقوم بكتابة قصة حول هذه الرسومات وأحياناً العكس.

أنا أرفض بشدة العنف بأشكاله وأنواعه كافة، وأرفض أي مبرر لاستخدام أدواته، وقد شاركت مع مؤسسة تعنى بنبذ العنف والحد منه في المدارس؛ العنف القائم على المعلم والطالب، عبر إعداد قوانين يلتزم بها كل من المعلم والطالب.

مدرسة الخضر الأساسية – بيت لحم